DE GAULLE (1890-1970)

الفصل الرابع

# المواجهات والعمليات العسكرية

لم يستكن الفيتناميون لمصيرهم، وإنما عمدوا إلى المقاومة. وانبرت الصين لمساعدتهم بإرسال قوات صينية إلى تونكين. وفي نهاية عام ١٨٨٣، بادر الفرنسيون، الذين فاق عديدهم، في المنطقة الآنفة، عشرين ألف رجل، بقيادة الأدميرال أمدي أناتول بروسبر كوربيت ، إلى شن عمليات هجومية على الفيتناميين، استمرت عقدَين من الزمان. فقد انطلقت القوات الفرنسية شمالاً، من هانوي؛ وانفرق رتل منها، عبْر وادي النهر الأحمر لمواجهة الفيتناميين، الذين ساندتهم قوات صينية، في سونتاي . واتجه رتل آخر إلى ثاي نجوين ، فاستولى عليها. واستولى رتل ثالث على توين كوانج ، حيث تمكن من تمشيط منطقة النهر الأسود. وكان الفرنسيون، في كثير من الأحوال، يذبحون الأسرى: الفيتناميين والصينيين.

في أوائل عام ١٨٨٥، قصفت سرية بحرية فرنسية، بقيادة الأدميرال كوربيت ، المدينة الصينية الساحلية، فوزهو، ثم ميناء كيلونج، في جزيرة تايوان. وانطلقت القوات الفرنسية، عبْر التلال الحدودية، لتحتل مدينة لانجسون الإستراتيجية. استماتت القوات الصينية في مواجهة الفرنسيين، وجرحت قائدهم؛ ففرُّوا، تاركين أسلحتهم وعتادهم.

أعادت تلك النتائج إلى البرلمان الفرنسي انقسامه. إذ طالب رئيس الوزراء، جولي فيري، بمائتَي مليون فرنك إضافية؛ لدعم المجهود العسكري في الهند الصينية. فعارضه كليمانسو وحزبه معارضة شديدة، بل اتهمه بالخيانة العظمى؛ لتوريطه فرنسا في فيتنام. وألقى خطاباً، بات سُنَّة، يستن بها السياسيون الفرنسيون؛ حتى إن نائب وزير الخارجية

الفرنسي، جورج بال، ستلهم ذلك الخطاب، عام ١٩٦٥، في رسالته إلى الرئيس الأمريكي، ليندون جونسون ؛ إذ يقول: «حينما يتعرض رجالنا للأخطار، مرة ثانية، مثلما يحدث اليوم، سوف نكون مطالبين بدفع مزيد من الأموال، ومزيد من الرجال؛ ولن يكون في مقدورنا أن نعترض. وسوف نفقد الملايين إثر الملايين، والرجال إثر الرجال؛ ونمضي إلى الهلاك. أيها السادة، لا بدّ من سد هذا الطريق».

ورفض البرلمان الفرنسي مطلب رئيس الوزراء. ونزع منه الثقة. وصار هذا الرئيس يُزْدَرَى بتسميته فيري التونكيني، بدلاً من جولي فيري. أمّا القوات الفرنسية في فيتنام، فقد شنت هجوماً شديداً على قصر الإمبراطور الفيتنامي الجديد، هام نجهي ، في هوي، وحاصرته. ثم أحرقت المكتبة الإمبراطورية، بكلّ مخطوطاتها ومراجعها العتيقة. ونهبت محتويات القصر الثمينة كلّها، التي قدِّرت، آنئذٍ، بأكثر من أربعة وعشرين مليون فرنك فرنسي.

وفرّ الإمبراطور من العاصمة إلى مرتفعات لاوس. ونصّب الفرنسيون مكانه أميراً شاباً، هو دونج خانه. ثم أمكنهم القبض على الإمبراطور الهارب، ونَفَوْه إلى الجزائر. ولم يُفْتِر نَفْيُه المقاومة الفيتنامية؛ بل اتخذ نداءه، قبل النفي، شعاراً لها: «ليجاهد الأغنياء بأموالهم، والأقوياء بقوّتهم، والفقراء بأبدانهم؛ لتحرير البلاد من الغزاة».

شدد الفرنسيون من قبضتهم على البلاد، وعينوا موظفين مدنيين فرنسيين، ونشروا جنودهم في كلّ مكان. وأنشؤوا، عام ١٨٨٧، اتحاد الهند الصينية، المكون من: الهند الصينية، وتونكين، وكمبوديا؛ وأضافوا إليه لاوس، بعد ذلك.

واستعادت جذوة المقاومة الفيتنامية لهيبها، حينما بادر أحد نبلاء وسط فيتنام، الذي كان مستشاراً للإمبراطور هام نجهي، ورقيباً على كبار رجال الدولة: فان دنه فونج ، إلى تكوين جيش قوي من رجال العصابات؛ اتخذ مواقعه على جبل، يطل على قلعة فرنسية في هاتينه، في وسط فيتنام. وشن، طوال سبع سنوات، غارات عنيفة على القوات الفرنسية، طاولت محافظة ثانه هوا ، في الشمال؛ وكوانج بنه ، في الجنوب. وقسم منطقة عملياته ١٢ قسماً. وتمكن من تصنيع الأسلحة والذخيرة، على غرار الأسلحة الفرنسية، التي كان يستولي عليها رجاله. غير أن ما لم يحققه الفرنسيون بالسلاح، تأتّى لهم بالرشوة

والإغراءات؛ إذ زيّنوا الخيانة لرجال فان دنه فونج، بل لأُسرته كذلك؛ فانفض معظم الرجال من حوله، قبل أن يموت، عام ١٨٩٦، متأثراً بالدوستاريا.

واستولى الفرنسيون، عام ١٨٩٨، على قاعدة باي سيان، وقضوا على حركة المقاومة في دلتا النهر الأحمر. ووصلت قواتهم إلى لاو كاي ونجاي لو ودين بين فو، حيث استسلمت لهم، بعد مقاومة شرسة، جماعة التاي ديو فان تري.

عمدت فرنسا، إثر هذه الانتصارات، إلى تنظيم البلاد وفق مصالحها الاستعمارية. فأعلنت المنطقة الجنوبية مستعمرة فرنسية خالصة، باسم كوشين شينا (الصين الهندية)؛ والإقليم الشمالي محمية فرنسية، وألغت سلطة الإمبراطور عليه، واستعاضت عنها بمنصب ممثل للإمبراطور في تونكين، يتولاه فيتنامي، يعيّنه الفرنسيون. ثم أعلنت فصل تونكين تماماً عن أنام. ثم استبدلت بمنصب ممثل الإمبراطور مقيماً فرنسياً، تابعاً لمحمية أنام. أنشأت مجلساً وزارياً منتخباً، لفيتنام كلّها، يتناصفه الفرنسيون والفيتناميون، ويرأسه مندوب فرنسي سام. ولم يكن أعضاؤه المنتخبون، نظرياً، إلا، إقطاعيين وكبار تجار وموظفين، متعاونين مع المستعمرين. كما أنشأت مجلساً اقتصادياً ومالياً أعلى للهند الصينية؛ وغرفاً تجارية وزراعية، قلّما شملت عضويتها الفيتناميين. أمّا الإمبراطور، فحرّمت عليه جمْع الضرائب، وقَدَرَت عليه مخصصات مالية محدودة، وألحقت الموظفين الفيتناميين في بلاطه، بالإدارة الاستعمارية الفرنسية مباشرة. ولم تُبْقِ له إلا منح الألقاب الشرفية للوجهاء؛ حتى إن المندوب الفرنسي السامي، كان يرأس مجلس العائلة الإمبراطورية.

### هوشي منه وبدايات التورط الأمريكي:

استهل الزعيم الفيتنامي، هوشي منه، عام ١٩٣٠، نشاطه في مقاومة الاستعمار، بتأسيس الحزب الشيوعي، في هونج كونج. وإثر انهزام فرنسا، إبّان الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥)؛ وسقوطها في أيدي الألمان، عام ١٩٤٠، وانقسامها إلى حكومتين: إحداهما بزعامة المارشال فيليب بيتان في فيشي، والأخرى بزعامة شارل ديجول، في المنفى، في لندن، واحتلال اليابان منطقة الهند الصينية، شكل هوشي منه، عام ١٩٤١، حركة الفيت منه؛ لمقاومة كِلا الاستعمارَين: الفرنسي واليباني (وسيأتي

ذكرها). ولعلّ الولايات المتحدة الأمريكية، شجعته في بداية الأمر، على الاقتداء بالزعيم الشيوعي اليوغسلافي، المارشال جوزيف بروس تيتو، الذي تحدى موسكو؛ انطلاقاً من نظرتها القاصرة إلى منطقة الهند الصينية، والتي لم تَرَ فيها إلا ميداناً مصغراً للميادين الأساسية الأخرى، في الصين والاتحاد السوفيتي.

وسرعان ما استدركت واشنطن موقفها باتجاهات سياسية، اقترنت بعاملَين أساسيَّين:

١. تحالف أمريكي ـ فرنسي، يمليه مصير فرنسا وأهميته في مستقبل أوروبا الغربية كلّه.

٢. سقوط الصين في براثن الشيوعيين، وتبنّيها سياسة الاحتواء، أو التوسع الشيوعي في المنطقة؛ ما يستدعي بذل الجهود المكثفة، بالسبل كافة، للقضاء عليه.

ومن ثم، تنكرت الولايات المتحدة الأمريكية للشيوعي القديم، هوشي منه، الذي تصدى لحليفتها فرنسا. ورأت أنها لا بدّ أن تدعم فرنسا، بكلّ قوة؛ وهكذا، بدأت تتورط في مستنقع فيتنام. غير أن الأمل، الذي وأده الموقف الأمريكي في صدر هوشي منه، أحيته شرعة الأطلسي، في صيف ١٩٤١، التي أعلن فيها كلٌّ من الرئيس الأمريكي، فرانكلين روزفلت؛ ورئيس الوزراء البريطاني، ونستون تشرشل، أمنيتهما إعادة حقوق الشعوب المسلوبة، ومنْحها استقلالها. وظن أنه يمكن الاعتماد على هذا الإعلان، وفاته أن تشرشل، إنما كان يسعى إلى تحقيق الأطماع الأمريكية، المتفقة مع الأطماع الفرنسية، في منطقة الهند الصينية. وغاب عنه أن وعْد روزفلت جميع البلاد الخاضعة للاستعمار الفرنسي بالاستقلال، بعد انتهاء الحرب، ما هو إلاّ تشجيع لحكومة فرنسا الحرة، بقيادة شارل ديجول، أثناء محاربتها الألمان، عام ١٩٤٢. وإمعاناً في الموقف الأمريكي، أعلن روزفلت، أنه سوف يعمل، بكل ما أوتي من قوة، لإجهاض أيّ أطماع فرنسية في أراضي الآخرين. وفي ١٩٤٥، عرض على الجنرال الصيني المنشق شانج كاي شك، أن يضم منطقة الهند الصينية، ولكن الأخير اعتذر.

أمّا أروقة وزارة الخارجية الأمريكية، فقد سادها اتجاهان: تمثل أولهما، في المختصين بشؤون الشرق الأقصى، الذين رأوا أن الحكم الاستعماري الفرنسي، في

آسيا، «غير مقبول». ورفعوا مذكرة إلى الإدارة الأمريكية، تحث على ممارسة الضغط على فرنسا؛ لتمنح الهند الصينية «حكماً ذاتياً مستقلاً»؛ وإلا ستكون هناك حمامات من الدماء، واضطراب شديد، لسنوات طويلة، يهددان التقدم: الاقتصادي والاجتماعي، والسلام والاستقرار في المنطقة.

وتجسَّم ثانيهما في المختصين بالشؤون الأوربية، الذين قالوا بضرورة دعم فرنسا وتأييدها؛ والحذر من أيّ خطوات، تسبب تأثيراً سيئاً في العلاقات الأمريكية بالحكومة الفرنسية وشعبها.

وانتصر الاتجاه الثاني. وأكد الرئيس الأمريكي، هاري ترومان ، لجورج بيدو، الذي تولّى منصب وزير الخارجية الفرنسي، فيما بعد، أن الولايات المتحدة الأمريكية، تعترف بنفوذ فرنسا في الهند الصينية.

وإمعاناً في مقاومة الشيوعية العالمية، دعمت واشنطن المجهود الحربي الفرنسي، بمليارَين ونصف المليار دولار؛ وهو مبلغ، يفوق مساعدة مشروع مارشال ، لباريس على إصلاح اقتصادها المتدهور، عقب الحرب. وأنشأت في قاعدتها الخاصة، في كونمينج ، عاصمة محافظة يونان الصينية، مركز قيادة لمكتب الخدمات الإستراتيجية ، التابع لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية. وأوْلَت اهتمامها مراقبة المد الشيوعي، الصيني خاصة، الساعي إلى إقصاء النفوذ الغربي من المنطقة، والذي حاول دعم الفيتناميين، والاستفادة من تجارة الأفيون، وصفقات الذهب، وتهريب السلاح وغيره.

في ذلك الوقت، كان وضع القوات اليابانية، في المحيط الهادي، قد ساء بشدة. وخوفاً من أن تندفع فرنسا، بعد تحريرها وتكوين حكومتها المؤقتة،برئاسة شارل ديجول، إلى مساعدة دول الحلفاء، في جميع خططهم؛ لاحتلال هذه المنطقة الحيوية اقتصادياً وإستراتيجياً، أعلنت اليابان استقلال كل من فيتنام ولاوس وكمبوديا. لم يفطن هوشي منه إلى ما يدور في الأروقة الأمريكية، ولم يدرك حساباتها الخاصة. وظل يسعى، طوال الأربعينيات، إلى إقناع المسؤولين الأمريكيين بأهمية إمداده بالسلاح والذخيرة والمعدات الأخرى؛ لقتال اليابانيين، ثم لإخراج الفرنسيين من فيتنام، بمقتضى شرعة الأطلسي. فاتصل بالقنصلية الأمريكية في كونمينج، في أوائل عام

١٩٤٤، طالباً تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة الأمريكية؛ ليشرح قضيته. كما التقى ضباطاً من قوات الحلفاء، وعرض عليهم خدمات رجال حرب العصابات، مقابل إمداده بالسلاح والعتاد. بل أرسل إلى هاري ترومان، في أغسطس ١٩٤٥، يطلب دعمه.

وأنعشت هزيمة اليابان في الحرب العالمية الثانية، رغبة الفيتناميين في التخلص من الاستعمارين: الياباني والفرنسي؛ فاندلعت انتفاضة شاملة، عمّت أقاليم فيتنام ومدنها، طوال عشرة أيام كاملة. وعُبِّئ الشعب، ودُرِّب، وسُلِّح. إثر تراجع الفرنسيين إلى المناطق الآمنة، في جنوبي الصين، نجحت القوات الفيتنامية، الموالية للحزب الشيوعي، في الاستيلاء على السلطة.

في النصف الأول من عام ١٩٤٥، كان وضع فيتنام كالتالي :

- عشرات الآلاف من الجنود الفيتناميين يرابطون في المواقع المهمة.
- قوات صينية ترابط في الشمال بعشرات الآلاف تحتجز قوات فرنسية ويابانية.
- قوات فرنسية تحتجزها قوات يابانية، وقوات فرنسية أخرى تتسرب تحت مظلة الحلفاء

### الدعم الأمريكي. الغربي لفرنسا

نجحت فرنسا في إعادة فرض نفوذها في الهند الصينية، وخاصة في الجنوب، حيث كان النفوذ الشيوعي ضعيفاً، تقاومه الجماعات الوطنية، والجماعات الدينية المناهضة للشيوعية. غير أنها لم تُحسِن استمالة تلك الجماعات؛ وإنما نفَّر سوء معاملتها كثيراً منهم، ودفعهم إلى الانحياز إلى الشيوعيين. وقد أفلح هوشي منه في التودد إليهم، وإثارة النعرة الوطنية فيهم، وضرورة التعاون على الخلاص من الاستعمار.

كانت فرنسا تظن، أن اعترافها بجمهورية فيتنام الديمقراطية، ولاية مستقلة، في إطار الاتحاد الفرنسي، هو كافٍ لاستتباب الأوضاع. ولكن الخلافات الحادة، في شأن تمام هذا الاستقلال، عجلت بوقوع الصدام بين الطرفين.

تولى فو نجين جياب، قيادة الفيت منه العسكرية؛ وتولّى هوشي منه القيادة السياسية العليا. وكانا قد شكَّلا معاً هذه القوات، أول مرة، في جنوب الحدود الصينية، بالقرب

من كاو بانج ، تحت اسم رابطة استقلال فيتنام. ثم حملت اسم الفيت منه، وأشرفا على تسليحها وتدريبها على تكتيكات حروب العصابات، ونشرها في الشمال، وضم ما استطاعا ضمه إليها. وتمكنا من توسيع نطاقها في الجنوب، كذلك، وخاصة في الريف. وبناء على تحالف هوشي منه وشانج فا- كوي ، حاكم محافظة كوانجسي الصينية، المتاخمة للحدود الفيتنامية الشمالية، تولى الأخير إمداد الفيت منه بالسلاح والعتاد والأموال، والقواعد في الصين؛ مقابل التبادل الاستخباراتي التجسسي على خصومه اليابانيين.

قررت فرنسا استدعاء الإمبراطور السابق، باو داي، من منفاه في هونج كونج، ليتولّى حكم ولاية فيتنام المستقلة؛ عسى أن يتمكن من اجتذاب الذين التفوا حول هوشي منه، ويوقف ازدياد انضمام أهالي الريف إليه. ولكن هذا التحرك الفرنسي، جاء بعد فوات الأوان؛ فقد كان الرأي العام، في معظم أنحاء فيتنام، قد آمن بمبادئ التحرر والاستقلال، التي رَوَّجَها الفيت منه في أنحاء البلاد. ورأت في باو داي رجلاً ضعيفاً، وعميلاً للقوات الاستعمارية على حساب مصلحة وطنه.

يوليه ١٩٤٥، عُقد مؤتمر بوتسدام، في ضاحية بوتسدام، ببرلين، بمشاركة الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي وبريطانيا العظمى. وقرر المؤتمر أن تحتل بريطانيا فيتنام، وتنزع سلاح القوات اليابانية جنوب خط عرض ١٦. بينما تتولى الصين الوطنية المهمة نفسها شمال خط عرض ١٦.

أمّا هوشي منه، فاستدعى ستين رفيقاً، من كبار رفاقه، إلى تران تاو، إحدى قرى محافظة ثاي نجوين ، شمال هانوي، حيث أعلن تشكيل رابطة التحرير الوطني ، برئاسته، وأمر بالثورة في أنحاء البلاد كلّها؛ عقب إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما ونجازاكي، في اليابان. فعمَّت ثورة أغسطس معظم أنحاء فيتنام، بما فيها سايجون. وقتلت كثيراً من رجال باو داي، من بينهم أخوه الأكبر. وأغار رجال العصابات على بعض النقاط اليابانية، واستولوا على أسلحة رجالها. ودخلت طلائع الفيت منه هانوي، في ١٦ أغسطس ١٩٤٥، واستولت على المباني العامة، وأعلنت استيلاءها على السلطة. ووصل هوشي منه، في ٢٤ من أغسطس، إلى المدينة، ليرغم باو داي في ٢٥ من

أغسطس، على التخلي عن العرش، في هوي؛ ويستدعيه إلى هانوي، وعيَّنه مستشاراً خاصاً له، في ٢٩ أغسطس؛ وليعلن، في ٢ من سبتمبر ١٩٤٥، استقلال فيتنام؛ وقيام الجمهورية الديمقراطية الفيتنامية ، برئاسته؛ وفي نوفمبر ١٩٤٥، أعلن حلّ الحزب الشيوعي للهند الصينية.

في واشنطن، أعلن الجنرال شارل ديجول أن فرنسا لن تتخلى عن خيار الحرب؛ وهدفها استعادة السيطرة على الهند الصينية. وعين الأدميرال ثيرّى دارجنليو ، مندوبا ساميا للهند الصينية، وحظر عليه قبول أي وساطة أجنبية؛ في التفاوض مع الفيت منه، بينما أرسل أحد أعضاء حكومته، وهو جين سيديل ، فهبط بمظلة، في جنوب فيتنام، للتفاوض سراً مع الفيت منه. وأردف ذلك بإرسال جين ستيني؛ للتفاوض مع هوشي منه. وقد نجح في كسب ود هوشي منه، وأصبح صديقاً له. وبادر هوشي منه إلى إبلاغ واشنطن ترحيبه بوصول مليون جندي أمريكي، لا فرنسي، إلى بلاده. وأعلن فو نجين جياب، أن الولايات المتحدة الأمريكية «صديق عزيز»؛ لأنها «دولة ديمقراطية، لا أطماع لها في أراضي الغير». ونقلت الاستخبارات الأمريكية إلى الرئيس الأمريكي، هاري ترومان، أن الفيتناميين مصرون على استقلالهم، «ولو استدعى ذلك حياتهم جميعاً؛ فليس لديهم شيء يخسرونه». ولكن الولايات المتحدة الأمريكية، أصرت على الانحياز إلى الجانب الفرنسي. أمّا سايجون، فكانت تعيش حالة اضطراب وفوضى، واقتتال طوائفها المختلفة. ولكن القوات الفرنسية تمكنت من إخضاع المدينة تماماً، بعد عنف شديد، وموجة اعتقالات واسعة.